المقدمة

نبذة عن المتحف والمكتبة

تـم تأسـيس متحـف ومكتبـة الإسـكندرية مـن قبـل بطليمـوس الاول (سـوتير)، الـذي ربمـا حقـق رؤيـة الإسـكندر الأكـبر، حيـث تصـور الأخـير إنشـاء مركـز فكـري داخـل إمبراطوريتـه في الـشرق، عـلى غـرار الأكاديميـة والمدرسـة الثانويـة. مـن المؤكـد أن مدينـة الإسـكندرية، التـي تـم تخطيطهـا حضريـاً مـن قِبـلِ الإسـكندر نفسـه وبمسـاعدة المهنـدس المعـماري دينوقراطيـس، قـد حققـتْ رغبـة القائـد المقـدوني في بنـاء مدينـة عنـد النقطـة الأخـيرة المذكـورة في إليـاذة هومـيروس، أي في جزيـرة فـاروس، والتـي سـتتطور لاحقـاً لتُصبـح عاصمـة إمبراطوريتـه في الـشرق، وأيضًـا مركـزاً فكريـاً عالميـاً يتجـاوز الحـدود الجغرافيـة واللغويـة.

لقـد سـاهمت حقيقـة أن معبـد التنبـؤات المـصري اعـترف بـه عـلى أنـه ابـن آمـون رع في اتخـاذه لقـراره، حيـث أضفـى طابعًـا إلهيًـا وفدائيًـا إضافيًـا لفتوحاتـه. بالإضافـة إلى ذلـك، لم يكـن اختيـار الإسـكندر لمـصر لتكـون مركـزًا سياسـيًا وثقافيًـا لإمبراطوريتـه غريبًـا عـلى العلاقـة التـي نمـت بـين الشـعوب «اليونانيـة»، كالمينويـين والميكينيـين مـع المصريـين منـذ الألفيـة الثالثـة قبـل الميـلاد. عـلى سـبيل المثـال، كانـت ذروة هـذه العلاقـة الجيـدة هـي تأسـيس مدينـة نقراطـس اليونانيـة في دلتـا النيـل في القـرن السـابع قبـل الميـلاد.

الفصل الأول يتناول بإيجاز العلاقات بين «الشعوب» اليونانية والمصريين، التي لم تقتصر فقط على التجارة، أي على استيراد وتصدير البضائع القيمة، كالزيت والقمح على سبيل المثال، أو الموارد المعدنية بكل أنواعها. لكنّها امتدت إلى المجالات الثقافية، كما هو واضح من تأثير هذه الشعوب الغربية في مجال الرسم، وكنتيجة طبيعية لتلك العلاقات ظهر تأثير الكتابة الهيروغليفية على طريقة الكتابة الخاصة بالحضارة المينوية.

في النهاية، دعنا نشير إلى أن المستعمرة اليونانية «نقراطس» التي أُنشئت على فرع «الكانوبي» لدلتا النيل، منذ القرن السابع قبل الميلاد، شكلت مركزاً ثقافياً يونانياً متنوعاً في مكانٍ حيوي في مصر، كما يتضح ذلك من بقايا الآثار، والمعابد، وجميع أنواع المباني، وكذلك نماذج الفن الخزفي أو حتى من نماذج الرسم.

في الفصل الثاني، جرت محاولة لإظهار مدى تأثير التأريخ اليوناني على فهم أخلاق وعادات الإمبراطوريات والإمارات الصغيرة في الشرق منذ نهاية القرن السادس، وبشكل منهجي منذ إنشاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر وممالك خلفائه التي امتدت من البحر الأسود إلى المحيط الهندي.

بدأ الإغريق في تسجيل تاريخ شعوب الشرق في كتابات «إثنوغرافية» (وتعني وصف الأعراق البشرية) وكتابات جغرافية منذ زمن هيكاتايوس الملطي، الذي سافر في نهاية القرن السادس إلى آسيا وأوروبا، وجمع معلومات ليست فقط ذات أهمية جغرافية، ولكنها أيضًا بمثابة دلائل تتعلق بأحداث مؤكدة، بالإضافة إلى الحكايات التي تتعلق بتأسيس المدن. ونتيجة لأبحاثه، قام برسم أول خريطة للأرض (في تلك الفترة).

مـن الواضـح أن هـيرودوت، المـؤرخ الأب، كـما أسـماه شـيشرون (في كتـاب القوانـين١،١،٥) الـذي امتثـل لتعليـمات ووحـي ربّـات الإلهـام التسـع وسـار عـلى نفـس نمـط سـابقيه وإن كان قـد أتبـع أسـلوباً أكـثر منهجيـة، قـد قـدم لنـا في العديـد مـن كتاباتـه نظـرة شـاملة عـن شـعوب المـشرق؛ حيـث يصـف علاقاتهـم بالعنـصر الناطـق باليونانيـة وكذلـك أثارهـم وأخلاقهـم عاداتهـم الدينيـة وغيرهـا. وبغـض النظـر عـن هـذا، فـإن الكتابـات الفريـدة المحفوظـة التـي لا تقـدر بثمـن، فتحـت الطريـق لكتابـة الأعـمال الموسـوعية مـن قبـل مؤلفـين أصليـين ناطقـين باليونانيـة، وبالتـالي خلـق إطـار عمـل أدبي خـاص مكتـوب باللغـة اليونانيـة يتميـز بطابـع إنسـاني بحـت.

وتجـدر الإشـارة هنـا إلى كسـانثوس الليـدي و «الإثنوغـرافي» ميغاسـتينيس الـذي يعتـبر أبـو التاريـخ الهنـدي ومؤلـف كتـاب «إنذيـكا» (Indika)، والـذي كتبـه عندمـا كان مبعوثًـا لـسلوقس الأول المنصـور (نيكاتـور) إلى الهنـد. واصـل البطالمـة مبـادرة المؤرخـين اليونانيـين، التـي اتخـذت أبعـادًا أخـرى وفقًـا لرؤيـة الإسـكندر الأكـبر وخلفائـه مـن أجـل دولـة حضريـة في الـشرق تحـت مظلـة لغويـة يونانيـة. وهكـذا قـام مانيتـون مـن سـبننوت المصريـة (سـمنود حاليـاً)، أمـين أرشـيف معبـد سـيرابيس في هليوبوليـس، بتأليـف كتـاب «ايجيبتيـاكا» باللغـة اليونانيـة، حيـث يعـرض تاريـخ مـصر بدايـة مـن حقبـة الأسـاطير وحتـى الأسرة الثلاثـين (٣٤٣ قبـل الميـلاد). في نفـس الوقـت تقريبًـا، أسـس الكاهـن البابـلي بيروسـوس، الـذي كان متخصصـا في علـم التنجيـم، مدرسـته الفلكيـة الخاصـة في كـوس، كـما أنـه كتـب عملـه «البابليّـات» أو «الكَلْديّـات» باللغـة اليونانيـة، وأهداهـما إلى أنطيوخـوس الأول (المخلـص).

الفصل الثالث تم تخصيصه للإسكندر الأكبر. القائد، وصاحب الرؤية للإمبراطورية اليونانية ومؤسس أول مدينة تحمل اسمه في الشرق؛ تم ذكر أحداث حملته، منذ أن عبر الهليسبونت (مضيق الدردنيل) كممثل للسيناذريون (مجلس الشعب) اليوناني بهدف الانتقام من التدخلات المدمرة ونهب الفرس إبان حُكم كسيركسيس للأراضي اليونانية. كما تم سرد انتصاراته الملحمية ضد داريوس، وتحرير المدن اليونانية التي كانت تحت الاحتلال الفارسي، وغزو فينيقيا، واستسلام المَرْزَبان (الحاكم) الفارسي لمصر. جدير بالذكر أن الغرض هنا ليس تكرار مآثره المتعددة، بقدر تحديد مراحل تحوله من قائد لا يقهر إلى مؤسس اجتماعي وحضاري لم يشهد التاريخ له مثيلاً سواء قبله أو بعده.

كانت الحاشية الصغيرة المُصاحبة للإسكندر عند لقائه مع كهنة آمون في واحة سيوة شاهدة على تنصيبه ابناً لآمون، كما أنها أصغت إلى التحية الموجهة إليه؛ «لتحل عليك بركة الإله كا حلت عليك من أبيك». وهكذا فإن الإسكندر الذي أصبح يتسلح بطبيعة ألوهية، اختار أن يؤسس أول مدينة ستحمل اسمه، الإسكندرية. بعد أن انتهى من وضع تصميمها مع دينوقراطيس، عاد إلى جبهات القتال حول نهر الفرات، بهدف مواجهة داريوس مرة أخرى. هزمه في سهل جوجميلا وفي طريقه إلى بابل، نُصِّبَ من قِبل مجلسه العسكري ملكًا لآسيا وخليفة للسلالة الأخمينية. بعد بابل، غزا العاصمة القديمة للفرس، سوسة، واستولى على الثروة الهائلة التي كانت مخبأة في خزانة داريوس. ثم توجه نحو برسيبوليس، عند بواباتها خرج منها أعدائه لمقابلته وهم يحملون حوالي ثمانمائة جثةٍ مقطعة الأطراف لحرفيين ليونانيين كانوا يعملون لدى الفرس.

يواصل الإسكندر مسيرته الحربية نحو إكباتان (مدينة همدان الإيرانية حالياً)، مدمراً الإمبراطورية الفارسية ويستمر نحو المقاطعات الشرقية من هيركانيا إلى القوقاز الهندي ونهر السند، حيث يواجه هناك سلاح حربٍ غير معروف له، الفيلة المدرعة، والقائد المُخضرم بوروس. لكنه تغلب على هذه العقبة أيضًا. بالإضافة إلى أنه أعرب عن شهامته من خلال إعادة القائد المهزوم بوروس إلى عرش المرزبانية. من هناك يبدأ العودة إلى بابل، منصاعاً إلى توسلات جيشه.

في طريق العودة، ينظم مأدبة للاحتفال بانتصارات جيشه، ورغبَةً منه في تقوية العلاقات بين المقدونيين والفرس فقد بارك الزيجات الجماعية المختلطة، بينما تزوج هو نفسه من ابنة داريوس المُسماة بستاتيرا الثانية (أو فارسيني) كزوجة ثانية. ألقى خطابه الشهير في أوبيس، الذي كان من محاوره الرئيسية «آمل أن يعيش جميع البشر من الآن فصاعدًا كشعب واحد متحد من أجل الصالح العام..». أكمل بعد ذلك مسيرته نحو بابل، التي كان ينوي أن يجعلها مقراً لإمبراطوريته على الرغم من إنشاءه لمدينة الإسكندرية. في بابل عمل على إعادة ترتيب جيشه، كما أقام الولائم والحفلات طوال الليل. هناك مرض الاسكندر الأكبر وخارت قواه ثم توفى عام ٣٢٣ قبل الميلاد.

في الفصل الرابع، تم إلقاء الضوء على أحداث الاحتفال الجامح الذي نظمه كبار قادة جيشه بمناسبة الاستيلاء على مدينة برسيبوليس، والذي أسفر عن حرق القصر ومحفوظات الإمبراطورية الفارسية. وعلى الرغم من أن الإسكندر لم يكن مشاركاً في ذلك الاحتفال، إلا أن أتباع زرادشت اعتقدوا

لعدة قرون، حتى عصر كسرى والسلالات العربية للأمويين والعباسيين، أنه تعمد حرق الأفيستا، الكتاب المقدس للرسول زرادشت، بغرض القضاء على المعرفة العلمية والموسوعية الموجودة فيه، والتي كانت تفوق ما لدى المفكرين اليونانيين، وكذلك تدمير الاكتشافات الأثرية المحفوظة في برسيبوليس والتراث الفارسي المكتوب. يمكن القول هنا بلا شك أن إدانة القائد المقدوني هي نتاج دعاية إيديولوجية، حيث أن نصوص الأفيستا كانت محفوظة شفهيًا وتم تسجيلها كتابيًا فقط في القرن السادس الميلادي، وتحديداً في فترة كسرى الأول (٥٣٢-٥٧٩).

الفصل الخامس يبدأ بالموضوع الرئيسي للكتاب ويوضح كل ما نعرفه عن إنشاء المتحف والمكتبة في الإسكندرية من قبل بطليموس الأول والثاني. فيما يتعلق بهذا المركز الثقافي العظيم في العالم القديم، فقد بَقيتْ أشياء قليلة جدًا إلى أيامنا هذه، وبفضل إنجازات رجال الأدب والفنون فقط، يمكن استخلاص استنتاجات آمنة حول حجم مساهمتهما في المعرفة. لا تزال التفاصيل حول تنظيمهما وتشغيلهما غير معروفة تمامًا. لكن لو سلمنا بحقيقة وجود مدارس من هذا النوع في تلك الفترة، خاصة الأكاديمية والمدرسة الثانوية بأثينا، نستطيع المجازفة ببعض التخمينات. بخصوص رئيس المتحف فقد كان أحد كهنة ربات الإلهام التسع، كما ذكر لأول مرة من قبل المؤرخ سترابون، الأمر الذي لا نجده في أي مدرسة فلسفية أو مدرسة أخرى، وفي مقدمتهم تلك التي عمل فيها طاليس الميليتوسي.

من المؤكد أن بطليموس الأول سوتير أو لاجوس، الذي أسس المتحف وأشرف على أعمال البناء في الإسكندرية، كان لديه الرغبة في تنظيم هذا المركز الثقافي

ولذلك أراد أن يعهد به إلى ثيوفراستوس خليفة أرسطو في المدرسة الثانوية. لكن كما هو معروف أيضا فإن ثيوفراستوس رفض ترك ما يقارب من ألفي طالبٍ له في المدرسة الثانوية في أثينا والانتقال إلى الإسكندرية. وهكذا، كان حلقة الوصل التي تربط بين اللسيوم والمتحف هو ديميتريوس الفاليروني. على الرغم من أنه لم يكن له منصب رسمي في التسلسل الهرمي للمتحف، فلم يصبح أبدًا رئيساً للمكتبة بشكلٍ رسمي، إلا أنه كان يتمتع بالمعرفة والشغف ليكون مسؤولاً عن تنظيم برنامج إثراء المكتبة.

يتطرق هذا الفصل أيضًا إلى علاقة الآلهة المصرية بالأولمبيين (الاثنا عشر)، مثل أوزوريس وديونيسوس، وآمون مع زيوس، وإيزيس مع أفروديت. كما يناقش أيضاً قضية تجسيم أول إله مصري، سيرابيس (أو سارابي). في الوقت نفسه، انطلاقاً من ألوهية الإسكندر الأكبر، ظهرت منذ عصر بطليموس الأول رابطة «أخوة الآلهة» أي (لقب) الإسكندر من ناحية و(لقب) الفرعون من ناحية آخرى، كما هو الحال مع فيلادلفوس وأخته وزوجته أرسينوي.

ومع ذلك، فإن الموضوع الرئيسي لهذا الفصل هو أعمال وأيام رؤساء المكتبة ومساهمتهم في إعادة تقييم الأدب اليوناني بمعايير جديدة تستند إلى العديد من المخطوطات المتاحة، وإلى كتب لغوية متخصصة لشرحها. أولاً، تم ذكر زينودوتوس من مدينة إفسوس ومعاييره الخاصة لأصالة نصوص الشعر الملحمي التي كانت موجودة في المخطوطات البردية المختلفة من جميع مناطق العالم اليوناني. أيضاً تم الحديث عن خلفائه، أبولونيوس الرودسي، وإراتوستينيس السيريني، شاعر أرغونفتس العظيم، مؤسس الجغرافيا الرياضية، ومؤلف المقال الشهير بلاتونيكوس (وتعني العمل على

المعرفة الرياضية). خلف إراتوستينيس في المكتبة أريستوفانيس البيزنطي، وهو عالم نحوي عظيم، برع في إصدار طبعات نموذجية لأعمال كبار الشعراء الملحميين، مثل هوميروس وهيسيود، وأيضًا كتاب الشعر الغنائي، وخاصة بندار.

بعد أريستوفانيس البيزنطي وحوالي ١٨٠ قبل الميلاد، عرفَ المتحف والمكتبة فترة ركود، إن لم يكن انحدار، حيث تم تنصيب شخص غير معروف يُدعى أبولونيوس إيدوغرافوس، كرئيس للمكتبة. على الرغم من هذا، فإن خليفته في رئاسة المكتبة وهو أريستارخوس الساموثراكي كانت لديه جميع المواصفات اللازمة لاستئناف عملية البحث العلمي في المكتبة من حيث انتهى أسلافه. أيضاً على سبيل المثال تمت الإشارة إلى زينودوتوس، الذي كان يرى أنه من الضروري أن تتم شرح الأجزاء غير الواضحة لغوياً عن طريق الرجوع إلى نصوص مؤلفها، حسب الرأي المأثور حالياً؛ وهو توضيح هوميروس من خلال هوميروس.

على كل حالٍ، بعد وفاة أريستارخوس وصعود بطليموس السابع إلى عرش مصر، بدأت التطورات السياسية تؤثر على الحياة الفكرية للإسكندرية بأكملها. ولهذا فليس من قبيل المصادفة أن يُلاحظ مغادرة الأدباء للإسكندرية، بالإضافة إلى هذا فإن منصب رئيس المكتبة تولاه أحد الفرسان الذي يدعى كيظاس.

الفصل السادس يتميز بخصائص ببليوغرافية بحتة، حيث يركز على المساهمة الفريدة وغير المسبوقة لكاليماخوس السيريني في تجميع لوحات (جداول) معجمية، وبالتالي فتح باب التصنيف الببليوغرافي في العالم الغربي.

في بداية الفصل، يتم مناقشة الأساليب الأولية التي استخدمتها الحضارة السومرية والآشورية والأكادية في كتابة الألواح المسمارية، ودراسة فيما إذا كانت هذه الأساليب قد أثرت على آراء مؤلف تلك اللوحات، التي ربما لم يعرف عنها شيئاً.

تعهد كاليماخوس، المعلم والشاعر، كاتب الإيبيجارمات (الشعر القصير)، بترتيب المخطوطات الكثيرة المصنفة في مجموعات بطليموس الأول والثاني، بالتعاون بشكل وثيق مع رؤساء المكتبة، على الرغم من أنه لم يشغل أبداً منصب رئيسها. الأساس الذي جمع عليه اللوحات وقسمها لازال مثاليًا حتى يومنا هذا؛ حيث قسم الأدب اليوناني إلى وحدات موضوعية (الشعر والتاريخ والطب وما إلى ذلك) ثم قام بإدراج المؤلفين وفقاً للترتيب الزمني، مع كتابة سيرة ذاتية لكل منهم، ثم سرد أعمالهم حسب الترتيب الأبجدي.

جُمعت هذه اللوحات في مئة وعشرين كتابًا. وبالإضافة إلى هذا العمل اللغوي الضخم، قام كاليماخوس بتجميع العديد من اللوحات الأخرى، أكثر تخصصًا، على سبيل المثال وفقًا، للأماكن التي أقيمت فيها بعض الألعاب؛ كالأولمبية (Olympians)، والنيمائية (Nemeans)، والبيثيونية (Pythians)، والإسثميونية (Isthmians).

الفصل السابع خُصص للنشر وللموضوعات اللغوية؛ فقد تم إلقاء الضوء على طريقة نشر النصوص في العصر البطلمي، حيث يظهر الاختلاف الجوهري عن طريقة النشر التي سادت فيما بعد، خاصة في القرن التاسع الميلادي، وذلك عندما تم الاعتراف بالحروف الصغيرة في الأبجدية اليونانية. أما فيما يتعلق بمسألة اللغة، فهناك حديث عن اللهجة الأيونية كسمة

مميـزة للثقافـة الأيونيـة، وعـن ازدهـار وتكويـن منطقـة أتيـكا، وعـن الأحـداث التـي أدت إلى مـا يسـمى بأتيـكا الكـبرى والمجتمـع السـكندري.

يتطـرق هـذا الفصـل أيضًـا إلى الكتابـة بحـروف كبـيرة خـلال العـصر البطلمـي، وطريقـة رسـمها والدمـج التدريجـي لعلامـات الترقيـم، ووضـع النـبرة عـلى الكلـمات في أنـواع مختلفـة مـن الوثائـق التـي كانـت موجـودة بالفعـل في فـترة عمـل المتحـف البطلمـي.

في الفصـل الثامن، جـرت محاولـة لتصنيـف النتـاج الفكـري للمثقفـين الذيـن عملـوا في المتحـف في الآداب والفنـون، منـذ عهـد بطليمـوس سـوتير إلى عهـد كليوباتـرا، إلى وحـدات موضوعيـة، بغـرض فصـل إنجازاتهـم عـن إنجـازات باقـي المثقفـين مـن العـالم الناطـق باليونانيـة. لم يشـمل التصنيـف فقـط هـؤلاء الذيـن وُلـدوا في الإسـكندرية، ولكـن أيضًـا الذيـن قدمـوا مـن المناطـق والجـزر المجـاورة ذات التبعيـة الثقافيـة المبـاشرة لمملكـة البطالمـة، مثـل رودوس وقورينـة وكنيـدوس.

أمـا موضوعـات هـذا الفصـل، كـما تـم تصنيفهـا، فهـي تتعلـق بالشـعر الملحمـي، والرعـوي، والإبيجرامـا، بالإضافـة إلى مسـاهمة المثقفـين في تطـور الفكـر الفلسـفي، وإنشـاء مـدارس عامـة ومتخصصـة. كـما تـم تقفـي أثـر نشـاط أتبـاع المدرسـة المشّـائيّة في الإسـكندرية وتـم التعـرف عـلى خصائـص مـا يُسـمى بالشـكوكية الفلسـفية التـي ظهـرت مـن خلالأنيسـيديموس الكنـوسيّ. وفي مجـال التأريـخ، والـذي يشـمل أيضًـا علـماء اللغـة و «علـماء الإثنوغرافيـا»، كانـت البدايـة مـع كليتارخـوس، يليـه فيلارخـوس وتيماجينيـس. ثـم نختـم هـذا الفصـل بالحديـث عـن فيلوسـتيفانوس ومينيكليـس البرقـيّ، كـما تـم تسـليط الضـوء عـلى مسـاهمة كاليكسـينوس الـرودسيّ في الترحـال.

شـهدت العلـوم الطبيـة في الإسـكندرية تطـورًا كبـيرًا. عـلى الرغـم مـن عـدم بقـاء أي مـن المؤلفـات التـي كُتبـت خـلال العـصر البطلمـي بشـكل كامـلٍ، إلا أن الأطبـاء السـكندريين قامـوا بعمـل رائـع كمعلقـين ومفسريـن لمجموعـة أبقـراط. أيضـاً تـم ابتـكار العديـد مـن طُـرق العـلاج المختلفـة، وتـم إنشـاء كليـات طبيـة متعـددة، مثـل مركـز هيروفيلـوس الخلقيـدوني الشـهير، التابـع للمتحـف والـذي كان متخصصـاً في العمليـات الجراحيـة، ومـن أشـهر خريجـي هـذا المركـز نجـد فيلينـوس الكـوسي، الـذي يعتـبر مؤسـس المدرسـة التجريبيـة في الطـب، وأيضـاً روفـوس الإفسـوسيّ ومواطنـه سـورانوس. وأخـيرًا، تـم عـرض الأدلـة عـلى تقـدم العلـوم الطبيـة في الإسـكندرية مـن خـلال كتـاب الطـب (De medicina) لمؤلفـه آيلـوس (أوريليـوس) كورنيليـوس كيلسـوس، والـذي فيـه يُـبرز قـدرات الأطبـاء السـكندريين كمتخصصـين في العمليـات الجراحيـة.

قـام المؤرخـون السـكندريون وكذلـك العاملـون في مختلـف مجـالات التعليـم الفكـري، بتطويـر كبـير في مجـال الجغرافيـا ورسـم الخرائـط، سـائرين عـلى نهـج هيكاتايـوس العبـدي، رائـد هـذا المجـال، الـذي رافـق الإسـكندر في حملتـه إلى الـشرق. كـما قَـدِمَ إلى الإسـكندرية عالمـان جغرافيـان مـن قورينـة، وهـما أميتـوس وإراتوسـتينيس العظيـم، وهـو عـالم رياضيـات وعـالم فلـك قـام بقيـاس محيـط الأرض بـكل دقـة ممكنـة في ذلـك الوقـت. وأيضـاً يتحـدث هـذا الفصـل عـن الكتابـات الجغرافيـة لأدميرال أسـطول بطليمـوس الثـاني، ديموسـتينيس الـرودسيّ، حـول الموانـئ، وصـف المـراسي والسـواحل.

لم يقتـصر البحـث الجغـرافي لعلـماء الجغرافيـا والمؤرخـين عـلى فتـح طـرق بحريـة جديـدة في الـشرق، كـما هـو الحـال في الرحلـة المهمـة لثاسـوس أندروسـتينيس، وهـو مواطـن مـن أمفيبوليـس، الـذي تعهـد باستكشـاف سـواحل

شبه الجزيرة العربية وما وراءها حتى مصب نهر السند. دعونا نضيف هنا أيضًا المساهمة في رسم الخرائط مِن قِبلِ هيبارخوس الرودسيّ، عالم الفلك والجغرافيا ورسام الخرائط، الذي استخدام أدوات قياس متطورة مُقارنةً بسابقيه، مؤسساً بذلك حقبة جديدة في أبحاث رسم الخرائط، والتي استفاد منها كلاوديوس بطليموس استفادةً كبيرة.

ساهم كلاوديوس بطليموس مساهمة حاسمةً في علم الجغرافيا. وُلد بطليموس في مصر في نهاية القرن الأول الميلادي، وبالتالي عاش خلال العصر الروماني.

يُعتبر كلاوديوس بطليموس الوريث الطبيعي لسابقيه من المهتمين بالعلوم الطبيعية والاجتماعية، فباستخدام إنجازاتهم ترك لنا مُجلدين عظيمين وهما؛ (Μεγίστη σύνταξις أو Μαθηματικὴ σύνταξις) (أو كتاب المجسطي كما يسمى عند العرب) وكتاب الجغرافيا. يتناول المجلد الأول ترتيب الأجرام السماوية وفقًا لنظامِ مركزيةِ الأرض الذي حدده هيبارخوس، ويشير المجلد الثاني إلى خط الطول والعرض البالغ ٨٠٠٠ نقطة حول العالم. ما يدل على الأهمية الخالدة لعمل بطليموس هو أنه في أوائل عصر النهضة الإيطالية، قد تم ترجمة كتاب الجغرافيا إلى اللاتينية بين عامي ١٤٠٦ و١٤١٠ من قبل جاكوبو دانجيلو المعروف باسم (جاكوبوس أنجيلوس) تحت عنوان «الجغرافيا» وتم نشرها في البداية في فيتشنزا في عام ١٤٧٥ وتم إعادة نشره خمس مرات أخرى حتى نهاية عام ١٥٠٠.

كانت النظريات الرياضية والمسلمات الهندسية والحساب، عاملا حاسماً في تطور العلوم الرياضية في عهد البطالمة. حيث قام عالم الرياضيات والفيزياء العظيم في الأكاديمية، إيودوكسوس من كنيدوس بفتح طريق البحث في

الرياضيات والفروع المتعلقة بها مثل علم الكونيات. ركز بحثه بشكل أساسي على تطوير ما يسمى بـ «طريقة الاستنفاد» (Method of exhaustion)، والتي بفضلها تم اعتماد قياس المساحة والحجم على أُسُسٍ رياضية بحتة.

كان إقليدس السكندري أحد أهم علماء الرياضيات في العصور القديمة في حاشية بطليموس الأول (الذي قدم له الإجابة الخالدة بأنه لا يوجد طريق ملكي إلى الهندسة). كتب حوالي ١٣ كتابًا (بقي منها خمسة كتبٍ فقط) تحت عنوان «العناصر». أَهمل كتاب «العناصر» لإقليدس الكتابات القديمة، مثل كتابات أبقراط الخيوسي وثيفديوس المغنيسي. يهتم كتاب « العناصرٍ» بالهندسة المستوية، ونظرية التناسب، ونظرية الأعداد والمتتالية الهندسية، والهندسة الفراغية. حقق الكتاب نجاحًا كبيرًا في العالم المتحضر، وخير شاهد على ذلك النجاح هو ترجماته اللاتينية والعربية. أصبح «العناصر» كتاباً أساسياً في العلوم الرياضية، وتم تدريسه في المدارس والمراكز الفكرية العليا في العصور الوسطى في الغرب، وقد تم نشر الطبعة الأولى منه عام ١٤٨٢. في البندقية، بترجمة لاتينية مصحوبة برسوم بيانية من عملِ المصمم الأثري الشهير إيرهارد راتدولت.

درس أرخيميديس السرقوسي (أرشميدس) في الإسكندرية وكان على تواصل مع شخصيات بارزة في العلوم الرياضية، مثل كونون الساموسيّ ودوسيثيوس البيلوسي. فتحت هذه العبقرية الرياضية آفاقًا جديدة للبحث، ليس فقط في الرياضيات ولكن أيضًا في الهندسة. من بين أعماله الأخرى المتعلقة بالتوازن وتربيع القطع المكافئ أو قياسات الدائرة، يوجد أيضاً مقاله بعنوان «الطريقة» (طريقة النظريات الميكانيكية) المثير للاهتمام، حيث يحدد أرخيميديس طريقة الإثبات وطريقة صياغة المُسلَّمَ. بدأت

كتاباتـه في الانتشـار مطبوعـةً منـذ منتصـف القـرن السـادس عـشر، وفي مقدمتهـا «الأعـمال الكاملـة الباقيـة» بترجمـة لاتينيـة مصاحبـة للنـص الأصـلي (بـازل ١٥٤٤).

كان هيبارخـوس الـرودسيّ عـالم رياضيـات، عمـل في الإسـكندرية واهتـم بدراسـة الفلـك. عـلى الرغـم مـن أن رجـالًا عظـماء آخريـن أهتمـوا بعلـم الفلـك، مثـل أريسـتارخوس السـاموسي وكونـون، بالإضافـة إلى إراتوسـتينيس بالطبـع، إلا إن هيبارخـوس درس حركـة النجـوم وقيـاس المسـافة بـين الأرض والقمـر والشـمس، معتمـداً عـلى المصـادر البابليـة بالإضافـة إلى مصـادر أخـرى. اسـتخدم في قياسـاته أداة فلكيـة تسـمى حلقـة (التلسـكوب) ووُضِعـت في رواق الإسـكندرية.

في الفـترة الأخـيرة مـن العـصر البطلمـي وفي سـنوات الأولى للإمبراطوريـة (الرومانيـة)، لم يتـم إحـراز أي تقـدم في مجـال علـم الفلـك، عـلى الرغـم مـن أن بعـض الباحثـين تركـوا أعـمالًا رائعـة، مثـل ديـودوروس السـكندري، الـذي سـجل أعمالـه في مقـال بعنـوان «أناليـما» (مخطـط الميـل)، وهـي طريقـة لـقياس ارتفـاع النجـوم. وأيضـاً كلاً مـن كتيسـيبيوس السـكندري وفيلـو البيزنطـي، اللـذان يُعـدان مـن رواد العلـوم الميكانيكيـة.

أثبـت كتيسـيبيوس أنـه مبـدع ومبتكـر وعـالم مميـز؛ فهـو مؤسـس الديناميـكا المائيـة كفـرع مسـتقلٍ مـن فـروع الفيزيـاء، وقـام ببنـاء الآلات والأجهـزة التـي تعمـل بضغـط الهـواء، وتُسـتخدم في الحيـاة اليوميـة وكذلـك في فنـون القتـال. بالإضافـة إلى ذلـك فهـو مخـترع الهيدروليـكا (علـم حركـة السّـوائل)، وهـي آلـة موسـيقية تشـبه أنابيـب الأرغـن.

في نفـس الوقـت تقريبًـا كان فيلـو منتجـاً أيضًـا، لكنـه لم يكـن عضـواً دائمًـا في المتحـف، حيـث عـاش في رودوس لبعـض الوقـت. قـام بتأليـف كتـاب

«الخلاصة الوافية في الميكانيكا». في الأجزاء المحفوظة من هذا العمل يتم الحديث عن تصنيع أسلحة الدِفاع واستخدام الهواء المضغوط، وكذلك ذِكر أعماله الأخرى مثل «ضغط الهواء» و «المدفعية» (دراسة لتصنيع الأسلحة الباليستية)، و «التحصينات العسكرية» إلخ....

ومع ذلك، فإن العالِمَ الأهم في مجال الهندسة خلال العصر الهلنستي كان هيرون السكندري، الذي عمل في نهاية القرن الأول الميلادي. وضع هيرون تعريفات للأشكال الهندسية، والتعامل مع الهندسة والقياس الفراغي، بينما في عمله «المقاييس» يذكر العديد من الأمثلة لقياس الأسطح والسعة. يرجع الفضل لهيرون أيضًا في اختراع أجهزة تعمل بضغط الهواء والماء سواء بطريقة يدوية أو آلياً.

خلال العصر البطلمي، ظهرت أيضاً بعض العلوم التي تتعلق بالممارسات المصرية الموروثة، وخاصة الممارسات العلاجية التي تعتمد على الأجسام والظواهر الفلكية. كانت الموضوعات الفلكية بجميع أنواعها قد شغلت بالفعل الكهنة المصريين، كما كان لعلم التنجيم دور رئيسي في الحياة اليومية للمصريين. أما بالنسبة للطرق العلاجية في العصر البطلمي، فقد تم استخدام ما يسمى ب «علم النبات الفلكي» من بين الأمور الأخرى، وهو علم يحدد الروابط بين أنواع النباتات المزروعة، وأجسام النجوم من ناحية، وأعضاء جسم الإنسان من ناحية أخرى. كانت طُرق العلاج هذه مرتبطة بشكل خاص بالمصري اليوناني الذي كتب باللغة اليونانية. تجدر الإشارة هنا إلى فولوس ميندیسیوس، المعروف أيضًا باسم ديموكريتوس، وهو فيلسوف فيثاغورسي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، وهو ممثل لطبقة غامضة من الأدب الفلسفي، حيث تم دمج العديد من الوصفات السحرية للشرق.

الفصل التاسع مخصص فقط لقصة حياة الإسكندر الأكبر ومآثره، التي اتخذت شكلاً روائياً وانتشرت في تراث جميع شعوب الشرق والغرب أيضًا. ظهرت المعالجة الأدبية الأولى لحياة الإسكندر عندما قام كاليستينيس الأولينثوسي، ابن شقيق أرسطو، الذي رافق الملك الإسكندر في حملته، بتسجيل أحداث الحملة حتى عام ٣٣١ قبل الميلاد. وبفضل كتابات كاليستينيس، إضافة إلى بعض المعلومات الأخرى التي تتعلق بعلاقة بطليموس الأول بالقائد نفسه، أو من مصادر أخرى، استطاع شخص مصري يتحدث اليونانية من كتابة نصٍ عُرف باسم «رواية الإسكندر» لكاليستينيس المنحول.

أُعيد كتابة هذا النص مرارًا وتكرارًا، كما تُرجم إلى العديد من لغات الشرق والغرب. تم تداوله أيضاً شعراً ونثراً على نطاق واسع كقصة شعبية بعشرات الإصدارات المختلفة. تم نشره في الشرق بجميع اللغات تقريبًا، بالفارسية والإثيوبية والأرمينية، إلخ، بينما قام المؤرخون اللاتينيون في الغرب، مثل كوانتوس كوينتوس روفوس، بترتيبه وصياغته بأناقة زادت من حيويته وقوته التعبيرية، كما قام الفنانون بزخرفة النص برسومات ذات ذوق رفيع وخاصة في عصر ظهور الطباعة.

في سنوات العصور الوسطى في الغرب، لم تكتب الرواية فقط باللاتينية، ولكن أيضًا بلغات أخرى (الإيطالية والفرنسية والألمانية والإنجليزية) وتم تداولها في شكل مخطوطات. خلال العصر البيزنطي، تم تعديل رواية الإسكندر الأكبر وتقديمها نثرًا وشعراً وتم تسميتها «الإسكندر الملك»؛ استحوذت شخصية القائد المقدوني على خيال البيزنطيين أكثر من قصة حرب طروادة وأبطالها. في الآونة الأخيرة، وبدءًا من القرن الخامس عشر،

بـدأت محاولـة كتابـة روايـة الإسـكندر الأكـبر باللغـة اليونانيـة العاميـة الحديثـة اعتـماداً عـلى نـص كاليسـتينيس المنحـول. منـذ بدايـة القـرن السـادس عـشر، وقـت ظهـور الطباعـة اليونانيـة في البندقيـة، تُوجـد نمـاذج مـن هـذه القصـص، والتـي كان عنوانهـا « الإسـكندر المقـدوني»، وقـد صـدرت الطبعـة الأولى شـعراً في عـام ١٥٢٩، بينـما النسـخة النثريـة مـن الروايـة، المعروفـة باسـم «قصـة الإسـكندر الأكـبر»، تـم إصدارهـا للمـرة الأولى في البندقيـة، بعـد حـوالي قـرن ونصـف (مـن الطبعـة الأولى)، أي في عـام ١٦٧٠. بنـاءً عـلى التغيـيرات التـي شـهدها النـص الأصـلي، نسـتنتج أنـه لا توجـد شـخصية تاريخيـة أو عالميـة أخـرى تمتعـتْ بمثـل بهـذه الشـعبية، كـما لم أنـه لا تُوجـد أسـطورة تجـاوزت الحـدود الاثنوجرافيـة واللغويـة مثـل شـخصية الإسـكندر الأكـبر.

في الفصـل العاشر، تـم دراسـة «رسـالة» أريسـتياس يهـودا الشـهيرة إلى أخيـه فيلوكراتيـس، والتـي كانـت لفـترة طويلـة المصـدر الرئيـسي لإنشـاء المتحـف والمكتبـة في الإسـكندرية بنـاءً عـلى ارشـادات ديميتريـوس الفالـيروني. كـما أنهـا تبـين مناصـب اليهـود في عاصمـة البطالمـة والظـروف التـي بسـببها تـم ترجمـة الشريعـة مـن العبريـة إلى اليونانيـة (الترجمـة السـبعينية) بواسـطة ٧٢ يهوديًـا هلينسـتيًا. بالإضافـة إلى ذلـك، واسـتنادًا إلى كتابـات الأدبـاء والفنانـين، نلقـي الضـوء عـلى بعـض الأسـباب الرئيسـية لاهتـمام البطالمـة بتجميـع ثـروة هائلـة مـن الكتـب، بطريقـة غـير منضبطـة، الأمـر الـذي أدى إلى ظهـور السرقـة الأدبيـة والتزويـر.

الفصل الحادي عشر يتحدث عن حرق المكتبة المزعوم أثناء حصار الإسكندرية من قبل القوات البطلمية بقيادة القائد أخيلاس والدفاع عن يوليوس قيصر وكليوباترا. اندلع الحريق في ميناء الإسكندرية البحري وأحرق لفائف ورق البردي غير المكتوبة التي كانت مجهزة لإنشاء أول مكتبة عامة في روما. في حقيقة الامر يعد هذا تفسيرًا مخالفاً للواقع، لكنه ظلّ متوارثاً، خاصة وأنه لم يتم الرجوع إلى إدارات المتحف والمكتبة في السنوات التالية، وبالتحديد خلال فترة الإمبراطورية. أخيرًا، تتم الإشارة إلى ابنة بطليموس الثاني عشر، كليوباترا السابعة، آخر ملكات مصر؛ تم إبراز عبقريتها السياسية، وأيضاً مناقشة اهتماماتها الفكرية في علم العقاقير والتجميل، وكذلك مشاركتها في العبادة مع «ديونيسيوس الجديد» حيث تم تقديمها كـ «إيزيس الجديدة».

الفصل الثاني عشر يعرض الوضع القائم في الإسكندرية في ظل الحكم الروماني وتداعياته على المستوى الاجتماعي والثقافي. كانت مصر تعتبر ملكية شخصية لكل إمبراطور روماني. أيضاً تم تسليط الضوء بشكل خاص على مبادرة أغسطس قيصر لإنشاء مركز ثقافي ذي أيديولوجية دينية، من أجل تعديل أو تغيير هوية المتحف كمركز ثقافي بارز للثقافة اليونانية الرومانية.

خضعت مصر في وقت لاحق لحكم البيزنطيين، حيث تناولت كتب المكتبة خلال تلك الفترة المسيحية مسألة الاضطهادات العرقية والأدب اليوناني الروماني القديم. يتطرق هذا الفصل أيضًا إلى قضية التحول من لفائف البردي إلى المخطوطات، طبقاً لقرار قنسطنطيوس الثاني بمناسبة إنشاء مكتبة جامعية في القسطنطينية برئاسة ثيميستيوس.

الفصل الثالث عشر مخصص لفتح العرب للإسكندرية عام ٦٤٢ م. والموروث المتعلق بشأن حرق بقايا المكتبة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب. كما يتناول الأحداث التاريخية التي ذكرها المؤرخون العرب التي تتعلق بأحد الأشخاص الذي يُدعى يوحنا، حيث كانت هناك محاولات ربطه بشخصية تاريخية بعينها. في هذا الفصل، نتحدث أيضاً عن العلاقات الثقافية التي نشأت بين العرب والبيزنطيين بعد الاستيلاء على المناطق التي كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية المشتركة بين سكانها. بالإضافة إلى ذلك، تم التطرق إلى القضايا والظروف التي تشكلتْ في ظلها حركة الترجمة العربية للأدب اليوناني القديم في ذلك الوقت.

في الفصل الرابع عشر والأخير، يتم عرض القضايا المتعلقة بالتخطيط العمراني للإسكندرية، مقارنة بالتخطيط التقليدي للمدن اليونانية، ونُظم التخطيط العمراني التي كانت سائدة بالفعل قبل فترة هيبودامو س. تم وصف العناصر الخاصة المتعلقة ببناء الطرق، وإنشاء المباني العامة، وإمدادات المياه، ونظام الصرف الصحي للمدينة. تحديداً تمت الإشارة إلى إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم، وهي منارة الإسكندرية (فاروس الإسكندرية) الموجودة في الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه (أي جزيرة فاروس)، وتم سرد الأسباب التي أدت إلى تنفيذ المشروع واسم المهندس المعماري الذي قام بتنفيذ البناء.

ومع ذلك، فإن الموضوع الرئيسي لهذا الفصل هو التصميم والتخطيط المعماري لمتحف ومكتبة البطالمة بالإسكندرية، حيث تم البناء طبقاً لأساليب البناء السائدة من القرن السادس، أي منذ زمن طاليس الميليتوسي.كان

البنـاء يتكـون مـن مجمعـات متماثلـة تمامًـا، مـن نقطـة بدايـة محورهـا البوابـة المركزيــة ومعبــد ربــات الإلهــام. كان المبنــى محاطــاً مــن جميــع الاتجاهــات، وكانــت المجمعــات تطــل عــلى فنــاء مســتطيل مُحــاط بــرواق.

فيــما يتعلــق بالســمات المعماريــة للمبنــى، وبمــا أنــه لم يتــم إنقــاذ أي مبنــى حــضري مــن العــصر البطلمــي في الإســكندرية، إلا إنَّ معــالم الدفــن، وشــكل الأبنيــة التــي تــم العثــور عليهــا في مقابــر الإســكندرية، يُمكــن مقارنتهــا بتلــك الموجــودة في المقابــر المقدونيــة في عــصر الملــك فيليــب الثــاني. بنــاءً عــلى كل هــذا، يمكننــا وضــع افتراضــات صحيحــة حــول النمــط المعــماري والخصائــص التــي حــددت تصميــم ومــكان المتحــف والمكتبــة بأكملــه، أي ســبب اختيــاره في منطقــة آمنــة بــين القصــور، مــع الأخــذ في الاعتبــار، بالطبــع، حجــم الكتــب الــذي تــم تجميعهــا هنــاك، كــما هــو واضــح مــن «لوحــات» كَليماخــوس.

ق. س. ســتايكوس